اساطير الاولين

من العلماء العصريين من زعم ان عباد الوثن ليس لهم دينٌ بل ديانان احدهما الاساطير وثانيهما الديانة

والاساطير في اللغة جمع اسطورة للحديث المدوَّن كذبًا وهي كلمة تنطبق على لفظة مثولوجيا اليونانية المركبة من كلمتين مثوس بمعنى اسطورة ولوغوس بمعنى كلام فهي اذا عُرِّبت حرفيًا كانت كلامٌ في الاساطير ويراد بها التعليم الذي يبحث فيهِ عن عقائد الوثنيين القدماء والاقاصيص الموضوعة عن معبوداتهم وما وراء ذلك من الاسرار والرموز

وكان الوثنيون يستفيدون من تلك الاساطير الوقوف على اخبار اوثانهم وما يتخللها من الاقوال المتعلقة بآدابهم والاقتدا بما يستطيعون من فعالهم او تجنب ما يسيء تلك المعبودات ويدينون لطقوس ديانتهم توصُّلاً لمرضاتها

والوثن في اللغة العربية ما يُعبد من دون الله ويقال للوثني في الفرنسية Païen وبالانكليزية Pagan وكلاهما مشتقان من كلمة Paganus اللاتينية وهي بمعنى فلاَّح على ان الكلمة اللاتينية لم تكن اسم الوثنيين في عصورهم بل هي من اوضاع النصارى حين استحال امرهم وغلبتهم الوثنيين على السيادة في الرومان فكان من دان منهم بالنصرانية اتسم بها ومن ظلَّ على الشرك وعبادة الوثن لجأ الى الجبال العصم واتخذها مقرًّا مبتعدًا فيها عن السلطة المسيحية فغلب على هؤلاء اسم الفلاحين ثم صار علمًا للوثنيين

ومن رأي بعض الباحثين ان القوم في بادىء امرهم كانوا يعبدون الله تعالى ثم كرَّت عليهم العصور فغووا وضلُّوا سواء السبيل وشرعوا يعبدون ما يرونهُ عظيمًا جليلاً ولا يفقهون لعظمتهِ سرًّا كالشمس والقمر والنجوم والجبال والانهار والاشجار وبعض الحيوان والانسان وكانوا يكثرون من المعبودات بنسبة ما يرون من عظمة الموجودات حتى تعددت عندهم الاوثان وتنوعت الاَّ ان اليونان والرومان اخذوا تلك العبادة وحصروها في اوثانٍ مثلوها بشرًا

وكأني بهم انما عددوا معبوداتهم تأليهًا لفضائل بعض نوابغهم على انهُ بقي لهم رأي في التوحيد ولكن طمس عليهِ الدهر ولم يبقَ الاَّ في صدور بعض كهانهم يؤيد هذا ان بعض النوابغ من حكماء الصين والهند وفارس ومصر واليونان قالوا بالوحدانية ان لم يكن صريحًا فتلميحًا

ولاخفاء ان لعلماء الغرب عنايةً في استيضاح خفيَّات الدهور ولذلك فانهم بذلوا جهد المستطاع في دراسة المؤلفات القديمة استجلاءً لعقائد الامم السالفة ليتم لاهل التاريخ الاطلاع

على شؤون الذين عمروا الكون من قبل وجمعوا شوارد الاخبار عن هاتيك المعبودات ونقبوا عن تواريخها وفحصوها حتى ظهرت لهم علاقتها مع آداب القوم وصناعاتهم وفلسفتهم فاصبح الكلام فيها لهذا اليوم علماً قائماً بذاته لما اتخذوه في سبيل الوصول اليها من الطرق الفلسفية وناهيك بان لهذا العلم فائدة يرتاح اليها الآخذون خصوصاً بعلم فلسفة التاريخ لما فيه من استجلاء غوامض الاديان الوثنية

ولقد كان القوم حتى قبل منتصف القرن التاسع عشر يقرأون اقاصيص المعبودات لاسيما اليونانية منها فيحسبونها خرافات اولدتها مخيلات الشعراء تزييناً لكلامهم او ايجاداً لموضوع تجول فيه سوابق افكارهم او انها من ترهات كهانهم يخرفون بها على عقول عامة الناس وناهيك باوهام العامة وجهلهم ولكن ما عتم العلماء ان ازجوا اليها ركاب البحث لما وجدوا لها من المقام العالي في مخيلة الشعراء والنحاتين الذين ظهرت ابدع نتائج قرائحهم وازاميلهم في تمثيل بعض هاتيك المعبودات والالمام باقاصيصها فلما انعموا فيها نظراً دقيقاً وسبروا غورها بمبار العلم العصري وجدوها ذات معانٍ دقيقة تدل على مقام واضعيها من الحكمة والسداد اذ تبين لهم ان منها ما تضمن من الحكم والدقة في معرفة طبائع الكون وحوادث الدهر ما يستوقف النظر وناهيك ببعض آدابها الغراء وما حوت ايضاً من صفات الالوهية والنفس البشرية ومعادها مما يظهرها للناقد العصري فذلكة العلم والحكمة ظاهرة في ثوب خرافي. فلما تبين علماء الفرنجة ذلك من بعضها سعوا في دراسة سائرها فادركوا مغزى معظمها وفقهوا سرّ وضعها وحسبوا ان عامة معتقديها لم يكونوا عارفين باسرارها وانما كانت الحكمة من واضعيها على ان الكهان كانوا يتخذونها سبيلاً للمخرقة على عقول العامة حتى تأصلت فيهم بكرور الايام ظواهر معانيها وعمّت طبقات الامم ترهات اقاصيصها

الاّ ان تعميم الاعتقاد بها من خاصة الناس وعامتهم ودكون القوم الى تصديق ترهاتها بما كان يدسهُ الكهان من تحقيقها في الاذهان لم يكن ليمنع العقول السامية في مدى تلك العصور من ان تقف حيرى عن اعتقاد صحتها لما فيها من مخالفات العقل ولم يكن بالمستطاع يومئذٍ نشر افكار المشككين لما يحول دونها من قوة الكهان الهائلة ولان تشكيكهم لم يكن الاّ اتفاقاً لانتاج البحث العلمي على شاكلة ابحاث العلماء في عصرنا فظل المشككون في ريبهم والمعتقدون على غوايتهم والتساهل في الامرين ضارب اطنابهُ على حدّ ما قال المؤرخ المشهور غبون في كتابهِ تداعي الدولة الرومانية وسقوطها ما تعريبهُ : لان سياسة القياصرة والملاء الاعلى (السناتو) من حيث الديانة كانت لسعدهم موافقةً لاراء المستنيرين من الامة ولما

اعتادوه اصحاب الخرافات حتى ان القوم كانوا يعتبرون ضروب العبادات الجة التي كانت شائعة يومئذٍ في العالم الروماني انها جميعها صادقة بينما يراها الفيلسوف منهم انها جميعها كاذبة ولكن ارباب الحل والعقد يعتقدونها جميعها نافعة وعلى هذا انتج التساهل لهم تبادل الاحتمال بل الاتفاق الديني اه

ومما وجد علماء العصر من خصائص هذه الاساطير انها جمعت بين الرموز والاقاصيص والمبادىء والعقائد والحقائق الدينية جمعاً جعلها كلها كتلةً واحدة متداخلة الاجزاء يكاد يحار الراغب في تجريد بعضها عن بعض فهي لا يقصد بها نشر الاكاذيب عن المعبودات بل تنحو غايةً اسمى الاّ وهي الافصاح عن طبائع الكائنات والمبادىء الادبية والآراء الدينية وكلها محوكةٌ معاً وممتزجة بوقائع كانت منشأً لتلك الاسطورة واما الرموز فان هي الاّ مجتمع طقوس ذات معانٍ خفيّة يحار فيها اللبيب على انهُ ليس بالمستحيل على علماء عصرنا ان يحلوها ويجلوها ليكشفوا اسرارها للناس

وليس في الامكان الوقوف عند القواعد العامة التي كانت تدعو لوضع تلك الاساطير فان الاسباب التي تحمل على وضعها تكاد لا تحصى الاّ انهُ يستفاد من آراء بعض الباحثين ان بعض الافراد كانوا يخدمون اوطانهم خدمةً نصوحاً كأن يشترعوا لهم السنن او ينظموا الشؤون او يمصّروا الامصار او يهاجروا بهم الى المواطن التي يختارونها او يسودوا فيهم ويحسنوا اليهم او يردوا عنهم الغارات او يأتوا غير ذلك من الاعمال الجليلة التي تعود على الامة بالخير والمجد حتى اذا قضى اولئك المحسنون وبقي ذكرهم في الامة حيّاً كافأوهم بتخليد اعمالهم وتأليه ذواتهم ابتغاء رفعهم فوق امثالهم من الناس وربما ادعوا لهم النسبة لسلالة الهية فيزداد بكرور الايام تذكار فضلهم وتعلو حكاية اعمالهم عن مطابقة الواقعة المألوفة فهي الاسطورة مأخوذة عن التقليد تدوّن في القرطاس وتحفظ دهوراً

ولكن تأليه الافراد لم يكن كل مصادر الاسطورة والديانة بل ان ثمة مصادر اخرى لا تقل عن تلك شأناً اريد بها الحوادث الطبيعية كنمو النبات وترتيب الكائنات وهبوب الرياح وقصف الرعود ولمعان البرق واشتداد العواصف ونزول المطر والثلج وشروق الشمس وطلوع القمر ولمعان الكواكب وجري الانهار وغير ذلك مما يجد الانسان من العظائم في الانسان والحيوان والجماد كأنهم كانت تحار فيه ابابهم فلا يجدون عنهُ منصرفاً الاّ اذا شفت غلتهم رواية اسطورة يتدعونها

ولقد قسم بعض علماء العصر تلك الاساطير الى قسمين اولها التقليدي او التاريخي وهو

ما حوى وقائع القوم واخبار التجّارين ومهاجرات القبائل وتصير الامصار واعتلاء شؤون بعض البيوتات المالكة . والقسم الثاني الديني او اللاهوتي وينطوي على العقائد بطبائع الآلهة وعلم الآداب وتهذيب الاخلاق وبعض العلوم واخصها الفلكية الى غير ذلك

الاّ ان هذا التقسيم غير مقبول عند جلّة العلماء لما فيهِ من مخالفة حال الاساطير لان معظمها تحوي مزيجاً من مواضيع شتّى فيعسر الحاقها بالقسم المحسوبة منهُ الاّ تسامحاً

ولقد عسر على الباحثين في نشأة الاساطير ان يتتبعوا سيرها منذ تألفها ليفقهوا امرها هل تدرجت الى حالها تدريجاً جرياً على كثيرٍ من الشؤون او برزت للوجود على طرزها المألوف وكذلك ما برحوا يجهلون سرّ اندماج الرموز في اشعار الشعراء لاسيما وان الشعر اليوناني محوك بالاساطير حتى صار بها سدىً ولحمة

ومما ارتأى بعضهم ان تلك الاساطير ولئن كانت مبعث الشعر والنحت او سبباً فعّالاً في تحسينهما وبلوغهما عند بعض الوثنيين مبلغاً عظيماً فانها هي السبب الفاعل في تأخرهما عند آخرين ذلك لان الفنون الجميلة تقتضي مبدأ الحرية والاستقلال لبلوغ الغاية في الصمل ولا حرية للشاعر اذا اراد ان يقتبس من الاسطورة حديثاً فانهُ يتقيّد باوضاعها ولا يبقى للمخيلة الاّ مجالاً محدوداً كأنهُ الشاعر العربي في عصرنا هذا اذا تقيّد بتحدّي الشعراء السابقين عجزت مخيلتهُ عن التوسّع في الخيال فنتجت اشعارهُ كأنها ظل القديم ليس عليها شيءٌ من طلاوة الشعر ورونقهِ . ويحاكي الشاعر في تقيّدهِ النحّات والمصوّر فانهما يتقيدان بما في الاسطورة من الاوصاف فلا يستطيعان ان يطلقا العنان لتصورها ناهيك ان التحسين في الصناعات يقتضي الذوق لاستحسان الجميل وهذا لا ينال الاّ في طلاوة الجديد وحسن الاختراع

ولكن ما عتم هذا القيد ان القي بهِ بعيداً وابتعد ارباب الفن عن التقليد فمثلوا كل اساطيرهم تمثيلاً بشرياً وحبوا اربابهم المذكورة فيها الهيئة الانسانية وخصائصها فشذوا بذلك عن الوضع الاول واصبحت الاساطير كانها تسمان قديم وحديث ولهذا قال هيرودوت المؤرخ ان الآلهة اليونانية من وضع الشعراء

وبين اساطير اليونان والامم الشرقية بوناً بما ترى من الخصائص البشرية في معبودات اليونان خلقاً وخلقاً بين ترى الرموز الطبيعية ظاهرة على اقاصيص الشرق ذلك لان اليونان كانوا يتخذون الانسان قاعدة فيمثلون بهِ كل شيءٍ في الوجود

ومما ذهب اليهِ بعض الباحثين ان من الاساطير الاولى أُخذت مبادىء الفلسفة وجرى عليها الحكماء بعد ذلك ولكن ردّ عليهِ بعضهم بان الآراء الواردة في بعض تلك الاساطير لم

تأتِ الاَّ اتفاقًا والحكمة لم تأتِ الاَّ بنت البحث والروّية نعم انهم لا ينكرون حقيقةً ظاهرة هي ان من اساطير بعض الامم القديمة كالكلدان والفرس والمصريين ما تحوي كثيرًا من مبادىء الحكمة والسداد والعلم الصحيح

وليس للاساطير هذه وطنٌ فردٌ اي انها لم تكن عند امةٍ دون أُخرى بل انها اعتقد صحتها كل العالم المعروف من قبلُ ولم ينجُ من ضلال الوثنية واساطيرها الاَّ الاسرائيليون قبل المسيح والنصارى والمسلمون من بعدهِ فالكلام فيها يشمل معظم الامم القديمة وبعض الحديثة كالمصريين والكلدان والاشوريين والبابليين والفينيقيين والسوريين والفرس والمادبين والهنود

واساطير هؤلاء الامم وعباداتهم اتصلت باليونان فالرومان فاثرت في عباداتهم الوطنية تأثيرًا ظاهرًا ولكنها لم تكن هي الوحيدة بين مثيلاتها بل كان ثمة للجرمان والسكندناف والبريتون والغالة وغيرهم من امم اوروبا عبادات وقاصيص الاَّ انها لم تؤثر في ما كان منها يونانيًا او رومانيًا

وتمتعت الاساطير اليونانية والرومانية بالمدرسية classique وهي ما يُعلم من نوعها ولدراستها المكانة العليا لما تكشف بهِ من الحقائق سواء كان في اللغتين اليونانية او اللاتينية او في تاريخ الامتين وآدابهما حتى انهم ليعسر فهم مؤلفات الامتين والوقوف على شذرات اقلامهم قبل الوقوف على اساطيرها واخبار اوثانهما لان لديانة الامتين دخلاً عظيمًا في شؤونهما المدنية والسياسية

بل ان بعض كتبة عصرنا هذا يكثرون من التلميح والكنايات والاستعارات المقتبسة من اساطير اليونان والرومان كل ذلك يجعل دراستها في مكان عظيم من اللزوم

قلت ان اساطير اليونان والرومان تمتعت بالمدرسية وليس هذا الوصف خاصًا بالاساطير بل عامًا لكل ما كتبهُ كتّاب الامتين وقد اطلقهُ علماء اوروبا منذ ابتداء نهضتهم الادبية على ما اتصل بهم من مؤلفات اليونان والرومان للاشارة الى تفوقهِ واعتمادهِ ثقةً في الاخذ عنهُ في المدارس لان جميع المدارس العليا في اوروبا واميركا كانت توجب على الطلبة فيها ان يتعلموا اللغتين اليونانية واللاتينية لاستطلاع مؤلفات القومين في لغتيهم ولهذا نعتت كتاباتهم بالمدرسية

الاَّ ان اليونان على علو قدرهم لم يكونوا واضعي ديانتهم ولا مؤلفي اساطيرها ولا كان كذلك الرومان وانما كانتا الامتين من جرثومةٍ واحدة في الاريّة وقد استمدتا ديانتيهما من ذلك المصدر كما استمدَّ منهُ اخوانهم الهنود والفرس وغيرهم الاَّ ان الصلات السياسية والتجارية

بين الامم سهلت لهم الاطلاع على عبادات بعضهم وتبادل الاقتباس . ولهذا تجد الديانة عند اليونان متكيفة عن اصولها بما داخلها من التحويز والاصلاح

وليس هذا الاقتباس منحصراً في الامتين بل نجد كثيراً من الامم تأخذ ضرباً من عبادتها عن غيرها او تدخل في زون اربابها وثناً جديداً كما سنبين ذلك في فرصة اخرى

جرجي بني

الانتحال

او سرقة الشعر والنثر

قال طرفة بن العبد

" ولا أُغير على الاشعار امرقها غنيتُ عنها وشرُّ الناسِ من سرقا "

ولو كان في ايامنا لقال

والنثرُ كالشعرِ ايضاً من تنخّلهُ عليهِ بين الورى اسمُ السارق الطبقا

يُطلق السارق او اللصُّ على من يعمد الى جدران البيوت والناسُ نيامٌ والليلُ مرخٍ سدولهُ فينقبها ويتسلل الى داخلها ويجوس خلال الغرف والمخادع ويتلقفُ ما خفَّ حملهُ وغلا ثمنهُ او على من يترصد أبناء السبيل مرابطاً مباغتاً حتى اذا هبطوا بطن وادٍ او جازوا قفراً خالياً انقضَّ عليهم من مكامن الطرق او مغابن الكهوف وسلبهم مالهم واشياءهم . او على خارب الابل وناهب المواشي او على من يخطف اولاد السُّودِ من عن ضفة نهرٍ او جانب غابة او حضيض جبلٍ ويبيعهم للغاسين بيع السماح او على خاطف السمع الذي يسرق ما يوحي بهِ ويجلي فيرمى بالرُّجُم من الجو الاعلى

هؤلاء يعرفهم القارىء بانهم سرّاقٌ ولصوص لانهم يخطفون ويخربون و يسلبون وينهبون وهم مذنبون بحكم جميع الشرائع والاديان ومذمومون بكل شفةٍ ولسان . لكنهُ قد يجهل ان بين اهل اللصوصية فريقاً يتلقف ما هو اكرم من المال ويتخطف ما يفوق كل عزيزٍ وغالٍ وهو آمنٌ في سربهِ مطمئنٌ في قلبهِ لا تنالهُ يدُ القانون باخف جزاء . ولا يعكر عليهِ الرأي العامُّ اقل صفاء . وهو المنقضُّ على سرّاق البيوت وقطّاع الطرق وخرّاب الابل من على منبر الخطابة بصواعق المطاعن والمثالب . والمرهف من غمد جريدتهِ او ديوانهِ او كتابهِ اقلاماً امضى من السيوف القواضب